

ابن الشعب.. مؤرخ مصر

الأثنين 06 يوليو 2009

عبد العال الباقوري



عبد العال الباقوري

اضطراراً لا اختياراً غابت «فواصل» عن العديدين الماضيين من «العربي» الغراء. وهذا الغياب جريمة أحرص على عدم ارتكابها، منذ قال لي قارئ عزيز في لقاء معه: لا أعرف ما يكفي عن تطورات فلسطين إلا مما نكتب في «العربي». من يومها بالذات أشعر بمسئولية ثقيلة، وإن كان من طبيعتي - والحمد لله - أنني أتهيب الكلمة، ولا أزال بعد أربعين سنة كتابة أشعر برجفة حين أمسك القلم وأضع الورق أمامي. ومع ذلك، ومع مساء الأربعاء من كل أسبوع أجدني مسوقاً للتساؤل ماذا سأكتب؟ وأحاول أن أقنع نفسي بالاعتذار عن عدم الكتابة، وفي صباح الخميس، وما أن أنفض النعاس جانباً، وقبل أن أفارق الفراش أجدني مدفوعاً للكتابة وفاء ولو بحق قارئ واحد يأمل في قراءة هذه الكلمات.

وفي الغياب الاضطراري، حلت الذكرى الأولى لرحيل الأستاذ والمؤرخ والصدیق الدكتور رؤوف عباس.. ذكرى؟ كلمة غير دقيقة وغير صحيحة، فهل نسيناه كي نتذكره؟ علم الله أنه لا يزال بيننا، نتذكره في كل وقت، وفي كل لحظة، في السراء والضراء، وكلما مر بنا موقف نتساءل: لو كان بيننا، من المؤكد أنه كان سيقول كذا، سيفعل كذا، وسيكتب هكذا.. إنه كان يكتب كما يتكلم: بساطةً ومعلوماتٍ وسرعة غير عادية، لا أريد أن أخوض في بحر الذكريات.. مع أن الذكرى للإنسان عمر ثانٍ. وسيظل رؤوف عباس عمراً مديداً ممتداً منذ رحيله، كانت أمامه أوراق ووثائق ومراجع دراسة عن «بريطانيا والوحدة العربية من 5491»، وذهب إلى لندن وأحضر وثنائق الموضوع، بينما كان يتوق إلى كتابة كتاب عن الوحدة الوطنية والمؤتمرين اللذين شهدتهما مصر في 1191، وكان هذا الموضوع لن يستغرق منه أكثر من أسبوع، فقد كان صاحب دأب غير عادي على العمل، كان يقضى حوالى 41 ساعة يومياً منكباً على الكتابة أو الترجمة أو القراءة. وكان يقرأ بنهم ليس في تخصصه فقط بل في كل فروع العلوم الاجتماعية.

وعند رحيله، كان أحد أصدقاء عمره الدكتور عبدة كحيله يعد طبخة خاصة من كتابه الذائع الصيت «مشيناها خطي» طبعة خاصة تضمنت كثيراً لما كتب حول الكتاب، كما تضمنت عرائض الدعوى التي أقيمت عليه، والتي أقامها على آخرين، والأحكام التي صدرت فيها «بالمناسبة، كسبت أسرته أخيراً دعوى أقامها ورثة أحد الذين اختلفوا معه».. وبعد رحيله بأسابيع صدرت هذه الطبعة في ضعف حجم الكتاب الأصلي.

وفي الوقت نفسه، بعد الرحيل بأسابيع، صدرت ترجمته لكتاب «بول كنيدي» المؤرخ البريطاني الأصل الأمريكى العمل والإقامة، وعنوانه: «برلمان الإنسان: الأمم المتحدة: الماضي، الحاضر، المستقبل». وكعادته في جميع ترجماته كتب له مقدمة مركزة وضع يده فيها على نقاط القوة والضعف في عمل المؤرخ ذائع الصيت، بالذات بعد كتابه «صعود وسقوط الدول العظمى».

ويتواصل عطاؤه بعد رحيله، وتعيد الهيئة العامة لقصور الثقافة إصدار كتابه «الحركة العمالية في مصر»، وهو رسالته للماجستير التي كانت إيذاناً بميلاد مؤرخ كبير.. وقبل أن تحل الذكرى الأولى للرحيل «ذكرى عدم النسيان» صدر كتابه الجديد والعميق: «كتابة تاريخ مصر.. إلى أين..؟ أزمة المنهج ورؤى نقدية»، وهى أوراق ودراسات ومقالات جمعها تلميذه النقيب والمخلص الدكتور ناصر أحمد إبراهيم.. وكان هذا الكتاب مدار احتفالية خاصة وذات طابع خاص أقامتها الجمعية التاريخية برئاسة الدكتور عادل غنيم، وأقيمت هذه الاحتفالية في قاعة بالمجلس الأعلى للثقافة، امتلأت عن آخرها، وانصرف كثيرون لأنهم لم يجدوا مكاناً.. وكانت «ليلة رؤوف عباس» وكما أسميناها من جلستين تحدث فيها عدد كبير من زملائه وتلاميذه، وقدموا رؤى لائقة باسم رؤوف

عباس، وأعماله، واجتهاداته التاريخية.. ولعل هذه الأوراق تجمع في كتاب فيكون إضافة مهمة لما كتبه الراحل الكبير وتحية أخرى إلى اسمه، وتقديراً لعطائه. وهنا تجب الإشادة بدور الدكتور صابر عرب رئيس مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية، والدكتور أحمد زكريا الشلق رئيس تحرير سلسلة «مصر النهضة» ورهما في إصدار هذا الكتاب والإشادة واجبة أيضاً بدور الجمعية التاريخية والدكتور عادل غنيم في الاحتفاء بذكرى مؤرخ كبير كان بكل تأكيد قلعة بين أبناء جيله، ثم يأتي الوفاء من الأصدقاء في شكل كتاب جمع بعض ما كتب في رثائه وبعض أبحاثه الصحفية، وبعنوان: «رؤوف عباس مؤرخ الشعب والوطن».. ولا ننسى الصلح الأساسي في استمرار عمل الإنسان بعد رحيله، وهو مجهود الابن البر المهندس حاتم رؤوف عباس الذي وضع كثيراً من أعمال المؤرخ الكبير على «النت».. ولن يكون عطاء رؤوف عباس في العام الثاني بعد رحيله أقل من العام الأول، بل قد يكون أغزر مادة وأكثر أهمية مما يؤكد أن مصر الحقيقية لا تنسى ولا يمكن أن تنسى العلامات المضيئة في تاريخها. ولكن كل هذا، لن يعوض المرء عن جلسة وصورة مع رؤوف عباس المصري البسيط النبيل، ابن الشعب ومؤرخ مصر الحديثة. رحمه الله

< فواصل سريعة

نشط التطبيع وتزايد المطبوعون ونام من يقاومون التطبيع، متى سيستيقظون ومن يوقظهم؟ حاول العبد لله أكثر من مرة، داعياً إلى صحوه وبقطة، قبل أن يصعب - وليس يتسع فقط - الخرق على الرائق، منذ سنوات قلنا، دعونا، كتبنا إلى «مؤسسة» لمقاومة التطبيع بدلاً من الجهود الفردية المتناثرة، وحين تصل الأمور - حسبما قرأت - إلى افتتاح فرع لـ «ستاد باكس» الصهيوني قرب المسجد الحرام فماذا تنتظرون؟

< شائعات تملأ البلد. تكهنات تسود السوق السياسية، توقعات من كل نوع في البورصة السياسية، إذن اضطربت الفتنة في البلاد، وأبداً أبداً لن يكون العبد إمعة، ولن يخلط الفروع بالأصول. والقابض على موقفه كالقابض على الجمر.

< دُمي - ولا أقول عدوى - النقابات المستقلة هل وصل إلى صاحبة الجلالة؟ إن حدث هذا فلا يلوم أهل النقابة إلا أنفسهم.. بسرعة مطلوب أن تكون النقابة لجميع أبنائها، تفرض عليهم جميعاً ولايتها وتمنحهم حمايتها طبقاً لقواعد ومعايير محددة ومعلنة وصح النوم يا مجلس نقابتنا الموقر والموقرة.

< بالمناسبة، هل لو قامت نقابة صحفيين مستقلة ستجد لها مكاناً على سلم النقابة الأم؟

< وبالمناسبة هل لا يزال اعتصام الزملاء الأساتذة صحفى الشعب مستمراً، مع تأييدى الكامل وتعاطفى الكامل مع مطالبهم الحق، إلا أن أصل القضية هو: متى تعود «الشعب» إلى الشعب؟ ومتى تعود أيضاً «صوت العرب»؟ هذه الأخيرة هل تنتظر رضا آل سعود؟ إلى هذا هانت مصر!!

< تهانى حارة وعميقة لجميع الفائزين عن استحقاق بجوائز الدولة، وفي المقدمة والبدية الصعيدي النبيل بهاء طاهر، والفلاح الفصيح محمد يوسف القعيد، والفيلسوف الكبير حسن حنفي، والمؤرخ القدير قاسم عبده قاسم.. والمصرية الأصلية نعمات أحمد فؤاد، وكاتب السيناريو وحيد حامد، وزميل المهنة جمال غيطاس، ولا أنسى بالطبع الأستاذ «المعلم» جابر عصفور على الرغم من أن فى الحلق غصة مما كتبه أخيراً حول قضية التطبيع خاصة قوله فى الأهرام يوم الاثنين الماضى «.. اندفع المسارعون إلى الاتهام بالباطل، وما أكثرهم بين المثقفين المصريين والعرب وهواة المزايدة موجودون دائماً، وكل ما فعلته هو مراسلة الناشرين الأوروبيين ويوسفنى أن يضع الدكتور جابر عصفور نفسه والمشروع القومى للترجمة فى البرلمان نفسه مع بعض المطبعين المعروفين والمعزولين، فضلاً عن معلومات غير دقيقة كثيرة ترددت فى مقاليدى فى 22 و 92 يونيو الماضى فى «الأهرام» لقد قلت بعض ما عندى فى حوار معه فى برنامج «الحياة» وفى مقال فى «الجمهورية» وفى غد قريب سنتضح الحقائق كاملة ستيبيض - بالتأكيد - وجوه من سماهم الدكتور عصفور «هواة المزايدة».

<http://www.al-araby.com/docs/article2142181506.html>